

تصدير

هذا كتاب طب وأدب . وقد يما كان الطب والأدب صفيين . ولم يذ كر تاريخ اللغة العربية طبيباً لم يكن أديباً إلا نادراً ، ذلك أن الطب أقرب العلوم إلى الأدب لأنه يعالج أسقام الإنسانية . ويتزل إلى أدنى دركات بؤسها وشقائها . فيذكر العاطفة . ويشير الشفقة . ويبحث إلى جانب هذا في تكوين الأحياء ونموهم . ويعرف النسبة التي تحتطها الطبيعة لهم فلا يعدو في ذلك تفهم الجمال في تطور مجاليه . وتعرف القبيح وجماله إن صح أن للقبيح جمالا . ولا أرى للأدب عاملين أقوى من العاطفة والجمال .

إننا في فجر نهضتنا الأدبية نرحب بكل جديد يفتح للفكر آفاق إن لم تكن مستغلقة فهي على كل حال مبهولة . وأرى أن كتاب « ما بين العقل والجنون » من الكتب الطريفة التي تستوقف النظر بين الركام المتراكب من الأسفار التي تحببنا بها المطابع الخسبة بالورق والمداد . ذلك أن هذا الكتاب نتيجة ملاحظات دقيقة قضى صديقنا الدكتور محمد حسنى ولاية سنوات عديدة في تدوينها وتنسيقها . جاهدأ فيها علم الطبيب . ورأى الأديب . دارجأ فيها على خطة مرسومة . سالكأ سبيلا خاصأ .

والدكتور محمد حسنى ولاية لم يتجاوز بعد العقد الثالث من عمره ياتهب ذكأ . ويسيل عذوبة . طاهر النظرات . صافى السريرة . إذا جلست إليه تبينت فيه بساطة العالم . وذكأ المتأدب . وثقافة الأديب . وإذا تحدثت إليه في مهنته أكرت إخلاصه لعامة . وفهمت كيف يوالى أبحاثه صابراً مكدود القلب . مشغوف النفس . بكل ما يزيد في طرائف ملاحظاته . مطالعأ أحدث الأبحاث العالمية في هذا الجانب من الطب الذى تخصص فيه .

(ب)

ولعل هذا الحاسَّ الذي يكسبه قوة في أبحاثه يكسبه شيئاً من الضعف فيها . ولا أ كذب الله أنى توقفت لدى كثير من الحالات التي يعرضها في كتابه وينسبها إلى الجنون والشذوذ ، وطفقت أطبقها على نفسى فكدت أراى موضوعاً من موضوعاته . وبطلاً من أبطاله . بل ذهبت إلى أبعد من ذلك وتوسعت في التطبيق على أقرانى وعشرائى فكدت أراهم جميعاً مجانين .

أجل ! إن الدقة في البحث . والأمانة في استقراء الحالات الطفيفة . والتعمق في الرجوع إلى الأسباب الخفية الدافعة على الهنة الهينة . كل هذا علمى محض . ولا بد للعالم من إقامة وزن له . ومحاولة تعليله وتدبره من جهاته كلها وإن كانت الحياة على ما أظن أبسط من أن نعقدها بل كفانا تعقيدها حتى نزيد فيه بتفسيره ووضعه نصب أعيننا .

وليس كتاب « بين العقل والجنون » علمياً محضاً ، ولولا ذلك لما كانت فيه هذه الطرافة التي تملك مشاعر القارئ وتدفع به إلى عبوره حتى النهاية . ففيه الصورة البارعة ترسمها ريشة الرسام مستوفاة الأسطار والألوان واضحة التخليل متناسبة الأجزاء مصبوبة في قالبها الصحيح حتى ترى صاحبها ماثلاً أمام عينيك . وناهيك بعالم الجنون ميداناً فسيحاً لمثل هذا الاستعراض ، فمنهم من يبعث فيك الأغراب في الضحك . ومنهم من يشير فيك عوامل الاشتزاز والضجر وغيرهم بل غالبهم يستفزك رحمة وشفقة ويستفزك التفكير والتأمل في هذا الأظلام الحسى . والإفقار الفكرى . أو على النقيض منهما فوضى ضاربة أطنابها في غيابات العقل والقلب .

وفي الكتاب الفكرة الناضجة يقرها تأمل المفكر المستقرى باحثاً في العلة والمعلول . ناشداً مباعث الشذوذ . وجللاً من نتيجته . الدواء قبل استفحال الداء . فالكتاب جم الفوائد للأطباء والأدباء . يفيد الطبيب في عرض مشاهداته المستفيضة وتتبعها في مختلف أطوارها وتقليبها على شتى وجوهها ، يعرف الداء تعريفاً علمياً ، ويصف الدواء وصف خبير عليم بعيسداً عن الجفاف العلمى الذي عمل منه غير الاختصاصيين وهو يفيد الأديب حينما يعترض ما يستعرضه

(ج)

متساوق الفصول في مرح وسهولة يبسط بهما العلم تبسيطاً يجعله قريب التناول حلو الأساغة . سريع التفهّم . وهي غاية جليّة ضالماً عاجلها غيره وقليل هم الذين أصابوا منها إصابته ونجحوا فيها نجاحه .

ولا يتسع هذا التصدير للاشادة والتدليل ولولا ذلك لا يمكن الرجوع إلى فصول عديدة في الكتاب يسيل فيها السياق سهلاً ممتنعاً كما يسيل في قصة عصرية بارعة ، على أن هذه الصور المختلفة والملاحظات الدقيقة تحتفظ إلى جانب الطابع الأدبي الذي طبعت به - برسمية الوثيقة الصحيحة التي يوثق بها . والأسنودة العلمية التي يستند إليها . فهي ذخّر نفيس لكتّاب الاقتصاصة والقصص توليهم أيّ يد في دراسة البشرية . والأخلاق الإنسانية . وتساعدهم على تحليل الشخصيات المعقّدة . وتدلهم على مداخل البدوات ومخارجها . حتى يكونوا على بصيرة مما تؤول إليه خطرات القاب . ورغبات النفس . فيقتبعوا سبيل التأثر في العصب منذ اقتداحه فيه حتى اشتعاله واندلاعه . وإذا علمنا أن « بول بورجيه » كان طبيباً قبل أن يكون قصصياً فهنا سر توسعه في تحليل أبطال قصصه تحليلاً ينفذ إلى أدق زاوية من زوايا القلوب والنفوس .

بل إن الكاتب الكبير إميل زولا حين شرع في كتابة سلسلة قصصه عن أسرة « روجون ماكار » وهي تقع في عشرين سنخراً ونيف كان يطبق في سردها نظريات كلود برنارد العلمية . وسواء أخفق في التطبيق أو لم يخفق فانه اتّخف الآداب الفرنسية بصحائف ضمّت في مطاويها أروع الوصف وأصدق النظرات على الرغم من ذلك الأدب المكشوف الذي وسمت به مؤلفاته .

وعلى ذكر الأدب المكشوف أعرف غير واحد من الذين لا يرضون عن الفصل المسهب الذي بحث فيه المؤلف الغريزة الجنسية . ولو كان هذا الكتاب أديباً محضاً لعل هؤلاء يكونون على جانب من الحق إذا جاراهم المؤلف في ميولهم إلى الصمت دون الكلام . والأخفاء دون الأذاعة . ولكن المؤلف يبتقى كتابه مبتوراً لو أنه أغفل هذا الجانب الهام من البحث ولبس لعله مسوح المتبتل ولوى عليه لثام الحياء . وإذا كان لمذهب الفن

(د)

للغن أشباع وأنصار فأخلق بأن يكونوا أوفر عديداً لمذهب العلم للعلم .

* * *

على أن الناظر في الكتاب لا يمكنه أن يغفل فيه ترجيح الطبيب على الأديب . فبينما يراه من الوجهة العلمية واسع الآفاق متشعب المباحث يحاسب نفسه على كل شاردة وواردة ، إذا به يتهاون في قليل من المواقف باستقامة الأسلوب ويتناول أسهل ما يصل إليه قلمه من التعبيرات غير آبه للثوب الذي يسبغه على فكرة فأذا فيه شيء من الهداية في بعض الأحيان لا شك أنها تعجب الأطباء ولكن لا أخاها ترضى جميع الأدباء .

* * *

وبعد ، فهذا كتاب يستحق عليه صديقنا الدكتور محمد حسنى ولاية كل الثناء لما بذل فيه من نشاط وعلم وأدب وفتح من آفاق جديدة لبحث العلماء ومن أبواب لأعين الأدباء وهو لا شك مواصل جهوده . منابر على الأخلاص لعلمه وعمله . لما في هذا كله من نفع الوطن خاصة وللإنسانية عامة .

خليل شبيب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، أما بعد فإني لما بصرت بمسيس الحاجة الى سفر عربي يجمع شتات أوصاف الأمراض العقلية والعصبية والنفسانية ، وأعراضها ، وملابساتها ، ومضاعفاتها ، ووسائل علاجها ، حفزني الواجب الى تصنيف هذا الكتاب قياماً بقسطي في خدمة العلم وأداءً لحق أهلي وبلادي عليّ ، ووفاءً للمهنة التي كرست حياتي على خدمتها ، راجياً أن أكون وفقت لاصابة المرمى ، آملاً الصفح عن التقصير والعيثرات ، فان العصمة لله وحده المنزه عن الزلات .

ولقد قسمت الكتاب الى أربعة أبواب ، حيث يحدد فيها قرأى الكرام متعة الوقوف على أسرار تلك العوارض المتباينة ، والالمام بما يحتاج صرعاها من الخواطر الغريبة الواهنة ، وما تمليه على بعضهم ذا كرتهم الواهمة ، فيدونونها في مذكراتهم كأنها حقيقة راهنة .

ولم يفتنى وصف العلاج الملائم لكل حالة من تلك الحالات ، ولا تبيان النظم الواجب اتباعها حيال المصابين بأى عارض من تلك العوارض المختلفة الأوصاف والتطورات ، ولا تأرب لي في ذلك سوى النفع العام ، وتسجيل اختباري في سفر يبقى على مر الأيام .

وانى أسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق في البدء والختام ، وأبتهل اليه جل شأنه أن يشمل بالنصر والتأييد صاحب الجلالة مليكنا المحبوب فاروق الأول على الدوام ، إنه سميع الدعاء

المؤلف

تناول الطعام ، لا لسبب سوى أنه يعلم أن الأطباء يتأففون من عملية تغذية المرضى صناعياً بواسطة « اللب » المعيدى فهو يضرب عن الطعام لانه يشعر بلذة كبيرة بارهاق الأطباء وحملهم على الانتقال الى مأواه وتغذيته صناعياً فيجلس على الأرض ويسمح للطبيب بادخال « اللب » المعد للتغذية من فيه الى معدته دون أن يبدو عليه أى امتعاض أو تأفف !

وتقيم فى مستشفى العباسية بالقاهرة مريضة بالبارانويا يخيل اليها انها ملكة ، وتتصور أن كل ما يحيط بها يصطبغ بلون الملك ، فكانت تميل الى العزلة وتتحاشى الاختلاط برعاياها ، وتتوخى الجلوس فى مكان لائق « بجلالتها ! » ، وصنعت لنفسها ثوباً وتاجاً جميلاً مزركشاً بأجمل الرسوم ، وكان أحد جانبي الثوب أسود مزركشاً بالابيض والجانب الآخر أبيض مزركشاً بالاسود ، وكانت تصنع هذه الحلل الدقيقة الصنع من خيوط (بطانيات) المرضى التى كانت تعتمد الى تسليها لتمدها بالخيوط اللازمة للزركشة ، وكانت تزين تاجها وصدرها بالزهور ، وهى بالرغم من عظمة الملك التى كانت مستحوزة على نفسيته كائنها حقيقة لا مرء فيها كانت تستقبلنى كلما قدمت اليها باحترام تام ثم تنشد لى أجمل الأناشيد بصوت عذب !

يمتاز كثيرون من المصابين بالبلاهة أو العته بميلهم لسماع الموسيقى وبراءتهم فى تقليد مسير الجمال والخيول والقطارات وأصواتها .

عالجت مريضة مصرية مصابة بالهوس (Mania) كانت قبل إصابتها به هادئة رزينة ، فلما انتابها هذا المرض كانت تعتمد فى بعض الأحيان الى تقليد لهجة المغاربة فى محادثاتها تقليداً مدهشاً ، ولما شفيت من مرضها لم تكن تستطيع ذلك التقليد .

ومن عاداتنا المتبعة في مستشفى المجاذيب أن نسأل مرضانا في فترات عن المكان والزمان وعما تناولوه من الطعام على سبيل اختبار قواهم العقلية ، فإذا كانوا في حالة ذهول لم يستطيعوا الإجابة عليها أو خلطوا فيها ، غير أنه عند ما يتنبه بعضهم يعمد الى الإجابة على الأسئلة نفسها التي ألقيت عليهم في فترات الذهول ليقنعونا بأنهم يقظون ، ويشفعون ذلك عادة بطلب السماح لهم بالخروج من المستشفى .

أعرف رجلاً أراد ذات يوم أن يضع مائدة في وسط غرفة بحيث سيكون سطحها أفقياً تماماً فأخذ ينثنى لينظر بمستوى سطح المائدة من جميع جهاتها للتأكد من ذلك ، غير أن هذه الموازنة النظرية لم ترح فؤاده فأتى « بميزان الماء » ووضعه على المائدة للتأكد من أنها أفقية تماماً

لبعض العظماء الذين يشغلون مراكز سامية في مختلف الدول ويهيمنون على مهامها اعتقادات هذيانة كاملة فتراهم يدبرون المؤامرات اللابقاع بسواهم من رجال دولتهم اعتقاداً منهم بأن أولئك يكيدون لهم ويتآمرون عليهم !

توجد حالة في بعض الأشخاص المعدودين في عداد العقلاء وهي الميل لاتيان ضد ما يطلب اليهم عمله أو ما يؤمرون به ، ومنهم من اذا سمع كلمات جارحة لشعوره مثلاً أخذ يرددها بصوت مسموع ساعات متوالية في فترات متقطعة ، ومنهم من يقلدون حركات الاشخاص الذين أهانوهم ، وهذه الظواهر تشابه تماماً ما يفعله بعض المرضى بجنون المراهقة .

وكثيراً ما نرى بعض الاطفال يتعمدون في أثناء سيرهم لمس كل ما يصادفهم في طريقهم ، أو أنهم يسرون على أطراف أرصفة الشوارع على قدم

واحدة، وهذه من المميزات التي يأتي بها بعض مرضى جنون المراهقة .
ومن الدلائل التي تدل على تأثير الأمراض الطفيلية (كالبلهارسيا
والانكلستوما) على المدارك العقلية ، أننا كثيراً ما نرى في بلد
كالقاهرة أو الاسكندرية فلاحاً مصحوباً بعائلته ينتظرون الترام ليقلهم الى
الجهة الاخرى التي يقصدونها ، فاذا ما وصل الترام أسرع الفلاح الى
تسلقه تاركاً عائلته ، ثم هو لا يلبث أن يستدرك خطأه فينزول ليساعد
أفراد عائلته على الصعود .

وكثيرون من المصابين بالأمراض الطفيلية يفقدون سرعة البديهة ،
فتراهم لا يجيبون على الأسئلة التي توجه اليهم الا بعد مدة يظهر في
أفئدتهم اضطرابهم الفكري في أساليب وجوههم .

تلك حالات تبين امتزاج العقل بالجنون والجنون بالعقل في كثير
من الاحياء ، وتبين أنه ليس هناك حد فاصل بينهما . وقد اقتصرنا
على ذكر الأمثلة المتقدمة حرصاً على توازن من عساهم يكونون عرضة للاستهداف
للأمراض العقلية ممن يستطيعون قراءة كلمتي هذه ، والسلام .

